أعمال الحج وأثرها في استجابة العبد لله تعالى

ثم إن الحاج أول ما يعمله من أعماله الإحرام. هذا الإحرام عبادة، وقربة يتقرب بها العبد إلى الله؛ وذلك لأنه إذا أقبل إلى البيت إذا أقبل إلى مكة ووصل إلى تلك المواقيت المحيطة بالحرم من كل الجهات فإنه يظهر عليه أثر الاستجابة؛ فيخلع ثيابه، يتجرد الرجال من ثيابهم المعتادة، ويرتدون ثيابا خاصة، يلبس أحدهم إزارا على عورته، ورداء على ظهره، ونعلين في قدميه، ويكشف رأسه. هذا المظهر ما الحكمة فيه؟ كونه عريانا لا بد أن تكون هناك حكمة. إن الحكمة أن يظهر عليه أثر العبودية، ويظهر عليه الذل، ويظهر عليه التواضع؛ وذلك؛ لأنه حسر رأسه. كشفه. تعرض رأسه للغبار وللتراب وللرياح، ينتفش شعر رأسه ويغبرّ، ويكون أشعث أغبر. كذلك أيضا يعرِّض وجهه، أو بدنه للريح ونحوه، يكون بهذا اللباس شبه العاري؛ يتذكر لباسه إذا خرج من الدنيا. لباسنا إذا خرجنا من الدنيا إنما هو ثوبان، أو نحو ما يلف فيهما الميت؛ فكأنه يتذكر بهذا اللباس لباس الموت، فيستعد للموت، ويعمل لما بعد الموت، يعمل لآخرته. كذلك أيضا يتذكر أنه عبد مملوك، وأن ربه هو المالك؛ فيخضع لربه ويتواضع، ويتذلل له، ويتضرع بين يديه، ويرفع صوته بالتلبية، ويرفع صوته بالدعاء والتكبير، ويعرف بذلك أنه في عبادة محبوبة يحبها ربه سبحانه وتعالى، وأن فيها تواضع لله سبحانه وتعالى، وأن من تواضع لله رفعه، ومن تكبر على الله وضعه. كذلك أيضا يتجنب كل الرفاهيات؛ فيتجنب قتل الصيد قال تعالى: { لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ } ؛ وذلك لأن الصيد مما يترفه به، ومما يقتنصه الناس لأجل التلذذ بالاصطياد، فالمحرم يتجنبه. كذلك أيضا يتجنب تغطية رأسه؛ لأن كشف الرأس تمام التذلل، ويتجنب لبس كل مخيط من اللباسات التي تفصل على قدر جزء من البدن. فليقتصر على هذا اللباس؛ الإزار والرداء، ويتجنب الطيب فلا يتطيب في بدنه، ولا يتطيب في لباسه. مشروع له أن يتطيب قبل أن يحرم في شعره، في لحيته، وفي رأسه وفي يديه، ولا يطيب إحرامه. وأما إذا أحرم، وعقد النية فإنه لا يتطيب؛ وذلك لأن الطيب مما يتنعم به، ومما يتلذذ به، والمحرم يتجنب هذه الرفاهية، ويتجنب التلذذ. وكذلك أيضا في حال إحرامه لا يقص من شعره؛ من شعر رأسه، ولا من شعر بدنه، ولا يقلم أظفاره. وإذا كانت أظفاره طويلة فإنه يتعاهدها عند عقد الإحرام؛ حتى لا يتأذى بها. يبقى كذلك يتجنب الرفث والفسوق، ويتجنب النكاح ومقدماته، ويتجنب قتل الصيد، وتغطية الرأس، ولبس المخيط والطيب، وقص الشعر، وتقليم الأظفار. هذه محظورات يتجنبها المحرم، لا شك أنها دليل على أنه يؤمر بأن يتذكر العبودية دائما؛ ولأجل ذلك إذا عقد الإحرام، فإنه يشتغل بكل ما يقربه إلى الله؛ فيشتغل بالتلبية.